فريسة بين جبارين

راحت فوزية ترقب بعين الأمل انقشاع غبار معركة السيد وزوجته خميسة، متوهمة أن السيد سيخرج من قلب الغبار متجهًا نحوها مفتوح الذراعين فيضمها إلى أحضانه .

ولكنها ودون مقدمات وجدت فارسها المشغول بمعركته يتحول عنها، ويدير لها ظهره، ثم يمنحها إجازة طويلة لم تطلبها، وحاولت رفضها، لكنه أصر أن تقوم بها، فاستجابت له دون أن تعرف لذلك سببًا..

قيل لها ـ من عنتر مكاوى تارة ومن أمير تارة أخرى ـ إن السيد يبعدها عن مواقع الأحداث حتى لا تراه أو تسمعه يتوسل إلى خميسة أن تصالحه. تذكرت نبوءة فتاها الجريح طاهر زين الدين ـ الذى ترجل رغمًا عنه من فوق حصانه وانزوى باكيًا ينتظر الموت:

ـ «سيلقى بك إلى الشارع..»

وفى منزلها أحست أنها الذبيحة التى أغلقوا عليها حظيرتها قبل موعد الذبح، ورأت أنها راهنت على الانتصار فخسرت، وأيقنت أنها كادت لغريمتها خميسة فارتد إليها كيدها حتى نحرها، ثم تذكرت أنها تنكرت لطاهر زين الدين حبًّا فى السيد النحال فأجبرتها الأيام أن تتجرع بعض ما سقته لحبيبها من تجاهل ونكران وتخل مقصود..

أطلت عليها أمها فى سريرها المعروق بنزف الكآبة، ومنحتها نصيحتها الحاذقة:

ـ «انسحبى بكرامتك، اطلبى حقوقك المالية، اشركى معك رجلًا يخشاه السيد، افتحى صالونًا لك هنا فى الحى، لن تتحملى الرجوع كعاملة بالأجر كما كنتِ فى السابق.»

زحفت إلى حشمت بركات فى مكتبه على إثر موعد مضروب.. أفصحت له عن خيبة

أملها، وتوسلت إليه أن يمكنها من حقوقها عند هذا الجبار.. وتعجبت أنها لم تلق منه سوى وجهًا صارمًا لم يتأثر بما تقوله، ولم تسمع منه كلمه واحدة تعليقًا على كل ما قالته الآن، لكنها فوجئت به يفتح درجًا من أدراج مكتبه بمفتاح صغير ويسحب زجاجة تعرفها.. ويضعها أمامها وهو يردد:

ـ «إذن، فقد جئت اليوم مقتولة لا قاتلة»

ـ «ماذا تقصد يا سيدى؟»

أشار إلى الزجاجة التى تسلمها منها يدًا بيد:

ـ «ألا تعرفين ما بداخل هذه الزجاجة؟»

ـ «إنها زجاجة الدواء التى أعطيتها لك لتأتى بمثلها، لكنك لم تهتم بذلك»

ـ ««وهل أتى لك السيد بمثلها بعد عودته»

ـ «أخبرته بما حدث ولم أقل له إنك لم تهتم، قلت إنك لم تعثر على هذا الصنف»

ـ «وماذا قال لك؟»

ـ «أهمل التحدث معى، ثم أهمل إحضار زجاجة بديلة»

ـ «ومنحك إجازة طويلة بعد هذا الحديث»

ـ «هذا ما حدث فعلًا ولا أدرى لماذا؟»

ـ «ليتخلص من شريكته فى الجريمة»

ـ «أى جريمة؟»

ـ «سأتحدث معك كأنك لا تعرفين الحقيقة وإن كنت أشك فى ذلك.. هذا الشىء الذى بالزجاجة ليس دواء، إنه سم بطىء كنت تضعينه للسيدتين فى الطعام..»

ـ «كيف ذلك وهو نفسه تذوق الطعام بعد وضع الدواء فيه.. أكثر من مرة»

ـ «وأنت..؟»

ـ «وأنا أيضًا»

ثم توقفت عن الحديث فجأة كأنها تتذكر شيئًا ما ثم واصلت:

ـ «لكنه نصحنى ألا أكثر منذ ذلك»

ـ «ألم يذكر لك السبب؟»

ـ «يومها قال ضاحكًا لا يجب على الصبايا الجميلات أن يتذوقن دواء العجائز»

ـ «ألم يثر ذلك الشك لديك؟»

ـ «أبدًا.. وإلا ما كنت تعجلت طلب زجاجة أخرى عن طريقك»

وتوقفت مرة أخرى عن الحديث لتدخل به إلى حديث آخر:

ـ «أليس من الممكن أن يكون من قال لك ذلك قد أخطأ.. السيد يحب حكمت وبشاير، وكم من مرة كنت أوقفه عن البكاء إذا اشتد المرض بإحداهن..»

ضحك حشمت من أعماقه ثم انقلب وجهه إلى الأسوأ، وقال بغضب:

ـ «هذا هو الحب الذى يسمونه حبًّا حتى الموت.. أنت يا فوزية شاركت فى جريمة، ولن يعفيك منها ادعاؤك أنك كنت تجهلين ما تقومين به.. المشنقة فى انتظارك يا بنت الناس..»

بدا الذعر على وجه الفتاة:

ـ «ما جئتك إلا لكى تخلصنى من السيد، وتضمن لى مستحقاتى المالية عنده، ثم تقول لى المشنقة فى انتظارى؟»

ـ «لو حققت لك طلبك معناه أننى شاركت فى الجريمة وتسترت على قاتلة»

ـ «ألن تحقق لى طلبى؟»

ـ «ومن أدرانى أنك تهربين بجلدك وتستخدمينني فى ذلك؟»

ـ «أقسم لك أن..»

ـ «لا داعى للقسم، أنا لست بقاض أو محقق.. أنا شاهد وساظل شاهدًا.. وها أنت قد وجدت جسم الجريمة فى مكتبى.. بصماتك عليها يا حلوة..»

ـ «أكاد أشل.. كيف ترضى لى هذه النهاية مع هذا الوحش؟»

ـ «الآن صار وحشًا؟.. انتظرى مصيرك..»

ـ «لا أكاد أصدق ما اسمعه.. أرجوك انس ما جئت لطلبه.. ساعدنى على الخروج من كل هذه المصائب بجلدى»

ـ « وأتستر عليك.؟»

ـ « أنا بريئة»

ـ « لست أنا الذى يحكم بذلك.. هناك شرطة ونيابة ومحاكم.. لست أنا»

نهضت مسرعة إلى حيث يجلس إلى مكتبه وألقت بنفسها فالتقطت راحتيه إلى فمها:

ـ «أبوس إيدك.. لا تدمر حياتى.. انقذنى.. قف بجانبى»

خطف راحتيه وابتعد بكرسيه بعيدًا، وراح يتأملها وهى تبكى :

ـ «اهدئى.. اهدئى.. عودى إلى كرسيك.. ارتاحى»

عادت إلى كرسيها لتكمل نحيبها الخافت وهى تصدر كلمات متقطعة:

ـ «ما الذى فعلته بنفسى؟.. لماذا لم أسمع كلام من كانوا يخافون على؟ كيف ورطت نفسى مع هذا الجبار.. أرجوك يا حشمت بك.. أرجوك»

لجأ إلى صمت طال حتى أرهق أعصاب الفتاة، ولم يكن يقصد ذلك، إنما جرفته الهواجس والخواطر المضطربة، فإزاحة الخصوم بالتخلص منهم فكرة بدأها قابيل ولن تنتهى إلا بنهاية الكون، والسيد النحال فعلها بهدوء واستخدم قاتلًا بالنيابة عنه، وهذا الولد ألمح له على أن إزاحة الهرم الرابع لا يكون إلا بالموت، ثم صرح بأن من يستدعى الموت لخصمه يستحق مكانه.. تمامًا كما استحق هو مكان حكمت وبشاير، وكما استحق جونسون مكان كنيدى.. فلماذا تسعى هذه الخيوط إليه سعيًا..؟ لماذا تسعى إليه الفكرة وصانعها ومنفذها وأدواتها.. ولماذا كان يقلب هذه الفكرة ويحافظ بداخله على هاجس اقتناصها؟.. ولماذا عزف عن استدعاء الفتاة فور إمساكه بحقيقة جريمتها؟.. ولماذا وجد نفسه يركن إلى الهدوء مانحًا الفرصة للوقت أن يتحرك لصالحه؟.. وها هى الفتاة تحركت بخاطرها نحوه، وها هو قد أتلف أعصابها وصارت جاهزة أن تلبى له كل مطالبه.. ولكن هل انتهى من التعرف على مطالبه؟.. كم هو بمطلب محير، مطلب يطرده كلما عشش فى عقله، لكنه لا يلبث أن يعود.. وها هو عاد بقوة بعد ظهور هذه الفتاة الساذجة.

ـ «أعطنى رقم تليفون منزلك»

هبت واقفه إلى جواره وراحت تمليه الرقم بصوت أرهقه البكاء. إلى أن سمعته يقول لها:

ـ «احتفظى لنفسك بكل ما سمعته منى، أحذرك أن تذكرى لأحد كلمة واحدة من حوارنا اليوم.. السيد النحال خطورته امتدت حتى وصلتنى أنا شخصيًا، قد يحتاج الأمر أن نتعاون معًا ضده لكسر شوكته.. هل أنت مستعدة لذلك؟»

ـ «أعدك أن أكون رهن إشارتك»

ـ «سأضعك تحت الاختبار حتى أثق فى إخلاصك فى التعاون معى، وطبعًا هذا معناه أنك تحت التهديد أيضًا، فاحذرى التلاعب بى»

* * *

أغلقت خميسة كل الأبواب فى وجهه، فانصرف السيد النحال بخيبة أمله إلى صديقه حشمت:

ـ «الملعونة ركبت رأسها، أنا أعرفها، لن أحقق مطلب أشرف باشا.. وأمير خرج من يدى.. كلاهما ملعون..»

ـ «لا تحمل همًّا، كنت أتوقع ذلك، وأحطت أخى أشرف علمًا بما سيحدث، وقد رتب حلًا مناسبًا يتلخص فى قيامك بالتنازل عن الشكوى.. فاستعد لذلك وتخلص من هذه المرأة.. قل لى من الذى يدير الصالون بدلًا من خميسة؟»

ـ «رجاء..»

ـ «ولماذا أبعدت فوزية عن المكتب والصالون معًا؟»

ـ «رغبة منى فى إبعادها عن الأحداث.. فماذا قالت لك؟»

فهم حشمت للتوّ أن النحال عرف بطريقته العنكبوتية أن فوزية التقت به.. فقال له:

ـ «البنت لم تجد سببًا مقنعًا لإبعادها، وتظن أنك تمهد لطردها وأكل حقوقها، فلو كنت تنوى ذلك فعلًا فخلص ضميرك وقم بتسوية حسابها، فحقوقها عندك تسمح لها بالاستقلال بمحل صغير فى عين شمس كما قالت لى»

ـ «هل هذا كل ما جاءتك من أجله؟»

ـ «البنت حائرة.. فمن الصعب أن تعود إلى عملها القديم، وتخشى أن تفشل فى الاستقلال بمشروع صغير، فطلبت منى أن أسعى لها فى وظيفة تناسب شهادتها، وقد

تحدثت فعلًا مع أخى أشرف فى تأمين عمل لها»

لم يجد السيد ما يرد به على هذا التطور الحاد فى موقف فوزية، وراح يتأمل نتيجة غير موقعة لحملة بلهاء خسر فيها امرأتين دفعة واحدة.. فعناده أثمر عن ذهاب فتياته لبعض من حوله، فها هى خميسة ترتاح بالقرب من حلمى عبد الباقى.. وفوزية تقترب ويتقرب لها حشمت الذى لا يرحم.. وكلها نتائج إذا أمعن فيها التأمل لا تنم إلا عن خسائر أصابت مملكته ورجولته فى وقت واحد، وها هو لا يجد بين يديه مكسبًا ملموسًا بعد أن أعتز أشرف بركات من مفعول خطابه الكيدى إلى جمال عبد الناصر.. فهل يعوضه عن هذه الخسائر أن اقترابه من أشرف بركات هو مكسب كبير فى حد ذاته؟ فكلّ منهما لفت نظر الآخر، وكلٌّ منهما ودون اتفاق يفكر فى امتطاء الآخر. أجل امتطاء.. وإلا فبماذا يمكن تسمية استخدام الآخر لتصل به أو عن طريقه إلى غاية معينة.؟

ـ «نظف طريقك من الحجارة يا سيد.. ودع عنك فوزية سأتولى أمرها»

ـ «وهذا ما سوف أفعله.. يجب أن تعود فوزية، إنها لى..»

* * *

وبعد انصرافه، سارع حشمت بركات إلى فوزية فتحدث معها بالتليفون، ووضع أمامها سيناريو مضيئًا للأحداث القادمة، كأنما هو الذى رتبها ولوى عنق السيد النحال لتمشى معه فى تنفيذها..

«خميسة سوف تنال طلاقها، وسوف يسارع إلى خطبتك.. لابد أن توافقى.. ولقد رتبت لك وظيفة محترمة.. لا تعودى للعمل معه.. تمسكى بالعمل الجديد الذى رتبته لك.. أنا أفعل كل ذلك لتحقيق ما اتفقنا عليه، تذكرى ما وعدتنى به».

وقبل أن ينهى المكالمة ومع بداية فرحتها الجديدة جاءت بأمها على التليفون لتشكره، وبعد أن خلا إلى نفسه حاول أن يفهم معنى ما قالته هذه السيدة الصعيدية أنها نصحت ابنتها أن تستعين على هذا النحال الجبار بجبار أكبر منه.